دور الإصلاح التربوي في تطوير الثقافة الإجتماعية

أ. محمد مناد

طالب دكتوراه

المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

ملخص:

تثار في الأنظمة التربوية المعاصرة مشكلات عديدة تتعلق في أساسها بالأدوار التي يمكن للتربية أن تلعبها في ظل تحديات العولمة والثورة الرقمية، هذه المشكلات تعكس بجلاء عمق الأزمة المتمثلة في الأدوار المنوطة بالتربية لتحقيق الوظائف والأدوار التي تؤديها والعلاقة القائمة بين التربية وبين المجتمع بثقافته. لقد فقدت المدرسة كأساس للفعل التربوي مقدرتها على مواكبة هذه التغيرات المتسارعة والمتواترة في مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية، وإذا كانت المدرسة عالما غير مستقل ولا يوجد في فراغ، بل نظام تتحدد وظيفته وصيرورته في جملة من العمليات الاجتماعية المتكاملة في إطار النظام الاجتماعي الشامل، فإنها تحتاج إلى إصلاح وتجديد، فالعلاقة بين إصلاح التربية وتغير الثقافة الاجتماعية أحد وجوه الأزمة التربوية المعاصرة. لأن التربية بدأت تفقد الكثير من أدوارها وحيويتها داخل المجتمع ومنظومته الثقافية.

الكلمات المفتاحية: التربية، الإصلاح، الثقافة، المجتمع.

Abstract:

Contemporary educational systems raised several issues in which the roles that can be played in education under the challenge of globalization and the digital revolution, these problems clearly reflect the depth of the crisis of the roles Education to achieve functions and roles and the relationship between education and community culture.

The school has lost its ability to keep pace with this rapid and frequent changes in various fields of social, cultural, and if Ecole scientists

is not independent and does not exist in a vacuum, and is determined by the system sovereign Inter integrated social processes within the social system overall, it needs to reform and renewal. Relationship between them is thus the reform of the education social culture ware one OTG faces the crisis of contemporary education Because education is losing many of its roles and its vitality, within the community and its culture.

مقدمة:

إن طرق التعليم والتهذيب هي أساس تنمية القدرات الكامنة في الإنسان، وفق نظم تعليمية محددة، تساير روح العصر، فلكل جيل حاجته التربوية من خلال واقعه الإجتماعي والثقافي لذلك اقترنت التربية بالتعليم، فالتربية تحمل معنى أخلاقيا هدفها تهذيب الإنسان والوصول به الى الكمال، وتكسبه المهارة اللازمة في تحقيق التكيف الأمثل مع المحيط، وتجعله فردا حضاريا مؤدبا في سلوكا ته نافعا لنفسه ومجتمعه وأمته فهي تخرجه من نطاق الحيوانية إلى أسمى مراتب الكائنات فتتحقق له السيادة والخلافة على الأرض، فيعتز بقيمه ويمارس حياته متماشيا مع الضوابط الإجتماعية، فيحترم الآخر ويقدس العمل الجماعي.

أما التعليم فيحمل معنى علميا يقوم على تلقين العلوم وعرض المعلومات والمعارف على المتعلم ،وتلبية حاجاته التعليمية مما يشجعه على الإبداع بتنشيط الفكر تحليلا وتركيبا وإستدلالا، وعدم الوقوع في القوالب الجاهزة فيتحفز للبحث والدراسة، ويستوعب العلوم ويتمثلها حتى يصير بعيدا عن الغزو الفكري والثقافي والعقائدي ولتكريس ذلك يجب إتباع الأساليب التعليمية الحديثة القائمة على حرية المناقشة والتحكم الجيد في التقنية وخاصة اللغة.

وعلى هذا الأساس ينظر الى التربية كعملية وكنتيجة "فالتربية كنتيجة هي ما نتلقاه من خلال التعلم، أي المعرفة والمثل والأساليب الفنية التي تعلمناها والتربية كعملية هي عملية تربية لأحد الأشخاص أو تربية الذات"[(1)]، إن التربية تعديل لسلوك الإنسان وتهذيبه ليتوافق مع قيم وعادات المجتمع، والمدرسة كمؤسسة اجتماعية تساهم في هذه العملية

من خلال المناهج الدراسية التي تجمع بين ثقافة المجتمع ومراحل نمو الإنسان لذلك ترمز المدرسة للتعليم والتعلم، وهي بمثابة الفضاء الروحي الذى يمكن الإنسان من تأسيس ذاته وبناء شخصيته فيصبح قادرا على التفكير وإصدار الأحكام، وممارسة حياته في نطاق الحياة المشتركة وهو ما يعكس القابلية لديه للتربية وقابليته للحياة الإجتماعية.

فالفرد يتعلم المهارات والقيم من مجتمعه والمجتمع يستخدم التربية لتحقيق الانسجام والوحدة، ومن هنا برزت اهمية وضرورة التربية في حياتنا المعاصرة بوصفها عملية ممارسة يومية يقوم بها الافراد... أو من خلال المؤسسات التربوية والتعليمية وعليه فإعداد الانسان عن طريق التربية، إنما يمثل نشاطا اجتماعيا شاملا، والتربية تعكس فلسفة المجتمع وطبيعة ثقافته فتنبع فلسفة التربية من الافكار، والقيم والعادات والمعتقدات المتعارف عليها اجتماعيا ،ومن ثمة فهي تؤكد على مكانة الانسان وقدسيته من خلال ما نضعه من تصورات، وأفكار لتنمية شخصيته وتطوير قدراته وإعداده وتوجيهه، وغرس القيم فيه ليكون فردا صالحا وعامل بناء لمجتمعه ، ولهذا فالتفلسف التربوي يقوم على فهم جديد للطبيعة الانسانية يتناسب مع القيم الجديدة واستقراء التاريخ يشهد بان كل الحضارات أسست لنفسها مشروعا تربويا خاصا بها، يقوم على أسس متنوعة حسب طابعها الاجتماعي والسياسي والثقافي.

وإذا كان العالم اليوم يعيش تقدما تقنيا هائلا وإنفجارا معرفيا رهيبا، جعلت العالم يشعر بأنه يقف على حافة التغيير، فإن بعض المجتمعات سارعت إلى إعادة ترتيب وتنظيم منظومتها التربوية في سبيل خلق مشروع تربوي نهضوي يجمع بين خصوصياتها الثقافية والتوجهات العالمية ،وهو ما تجسد من خلال الإصلاح التربوي.

لهذا فالعلاقة بين النهج الإصلاحي والفلسفة علاقة وثيقة فالنهج يرتبط بفلسفة الأمة وإنتاج الفكر الإنساني، حيث تمثل الفلسفة البعد النظري للإنسان في الحياة وتجسد التربية بمناهجها المدرسية التطبيق العملي للنظريات الخاصة بحياة الإنسان لذا فإنه لا يمكن لأي منهج تربوي أن يتجرد من فلسفة تؤطر عمله.

لهذا فإن الإصلاح التربوي أصبح ضرورة تربوية في مختلف المراحل التعليمية الابتدائي والمتوسط والثانوي والتعليم العالي والتكوين المهني، وهذا حتى يتماشى التعليم مع مستجدات المجتمع والتطور والتقدم العلمي والتكنولوجي لتكييفه مع هذه الظروف، وفي هذه الحالة تكون المهام المكلفة بالتعليم قابلة للتحقق وقادرة على تحقيق الأهداف المرجوة، لهذا نجد التعليم يخضع لمجموعة من الإصلاحات التي كانت نتيجة لدواعي تتطلب الأخذ بها حتى يستطيع التعليم تقديم خريجين ذو كفاءات عالية قادرين على التماشي مع مستجدات العصر وتطور الثقافة الإجتماعية، هذا مايثير مشكلة تتعلق بقيمة الإصلاح التربوي ومدى مساهمته في تطوير الثقافة الإجتماعية، وعليه نطرح التساؤلات التالية: ما المقصود بالإصلاح التربوي؟ وما هي علاقته بالثقافة الإجتماعية؟ وإلى أي مدى يمكن الحديث عن مساهمته في تطوير الثقافة الإجتماعية؟.

أولا: التربية والإصلاح من المفهوم إلى الفعل:

ترتبط التربية أساسا بالفلسفة والأديان والمذاهب، وهى تتعدد فى طرقها وأساليبها تبعا للأنماط السائدة في المجتمع وثقافته إلا أنه "على الرغم من الإختلافات في المعنى والتعريف لمفهوم التربية قديما وحديثا إلا أنها تنطوي على أبعاد مشتركة بصورة كلية أو جزئية"[2]، لأن التربية عبر مراحل عصورها تمثل عملية فطرية، فهي ليست أحد إفرازات العلم أو مكتشفاته بل هي خلاصة تجارب إنسانية أصيلة تتضمن قيما عليا وهي موروث ينتقل من الآباء الى الأبناء ومن الأجداد الى الأحفاد، حتى اعتبرت التربية حياة.

إن كلمة تربية في اللغة تعود إلى الفعل(يربو)فيقال ربى الولد أي غذاه وجعله ينمو وربا الشيء أي زاد ونما"[3].هذا المعنى ورد في القران الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة الحج:الأية 5] أي نمت. وورد أيضا في القران الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[سورة الشعراء: الآية 18] وربى هنا بمعنى أنشاه ونمى قواه العقلية والجسدية والخلقية.

كما أن التربية "نجدها مشتقة من كلمة ربى وتعني العناية بالشيء أو إصلاحه، فإذا قلنا ربى فلان ولده فمعنى ذلك أنه نشأه تنشئة حسنة وفق عادات المجتمع الذي يعيش فيه"[4].

"قال ابن الأثير: الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي ولا يطلق غير المضاف إلا على الله واذا أطلق على غيره أضيف، وفى حديث شريف "الناس ثلاثة عالم رباني "هو منسوب الى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة وقيل من الرب بمعنى التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها"[5].

"وورد في الصحاح في اللغة والعلوم أن التربية هي تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف"[6].

إن التربية بهذا المعنى فعل قصدي منهجي يشمل جميع مقومات الإنسان من استعدادات وراثية وما يكتسبه من بيئته الاجتماعية من قيم وعادات أي الثقافة، لأجل بناء الإنسان النموذج وإعداده لما يجب أن يكون عليه، فممارسات الإنسانية وتراكمات التجارب الحياتية متنوعة تمثل وعاء الحياة الإجتماعية ومختلف تياراتها الثقافية، لهذا تعكس التربية حاجة أو مشكلة إجتماعية تستدعي حلا، وهو ما يقتضيه الفعل التربوي الذى يعلم الانسان فهم نفسه وفهم الأخر والأشياء جميعا فتكون العلاقات الفعالة التي تنشأ بين الإنسان والبيئة الطبيعية والإجتماعية دعامة الخبرة، غير أن التغيرات المحلية والعالمية أفرزت تحديات جديدة خاصة ما تعلق منها بالثورة الرقمية وتطور وسائل الإعلام والإتصال، وما أصبح العالم يشهده من إنفجار معرفي، يستدعي ضرورة إعادة النظر في المنظومة التربوية، لأنها أساس كل تجديد وتطوير إجتماعي وثقافي، وهو ما أفرز فكرة الإصلاح التربوي.

إن الإصلاح من الفعل صلح: أي زال عنه سبب الفساد وانتفى.

وورد مصطلح الإصلاح في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [سورة هود: الآية 88]. والإصلاح معناه إقامة الشيء وتعديله بعد فساده واعوجاجه لتحقيق النفع وإزالة الضرر.

"الإصلاح محاولة فكرية أو علمية أو علمية لإدخال تحسينات على الوضع الراهن للنظام التعليمي سواء كان ذلك متعلقا بالبنية المدرسية أو التنظيم أو الادارة أو البرنامج التعليمي أو طرائق التدريس أو الكتب الدراسية وغيرها"[7].

كما يشير عادة إلى (عملية التغيير في النظام التعليمي أو جزء منه نحو الأحسن وغالبا ما يتضمن هذا المصطلح معاني اجتماعية، واقتصادية، وسياسية)[8].

ويعنى أيضا: " التغيير الجذري لبنية النظام والتجديد الكلي للأسس التي تقوم عليها ولعناصر السياسة التي توجهه[9].

ويعرفه عالم الاجتماع أحمد الخشاب بأنه" تغيير يكون إما جزئيا أو جذريا لمجال من مجالات الحياة، سواء كان في المجال الثقافي أو الإجتماعي أو السياسي أو الديني"[10].

كما " يقصد به العمل الذي تلجأ إليه وزارة التربية أو المعنيون بأمر التربية والثقافة، بهدف تحسين الأوضاع التعليمية والإدارية، وإجراء تعديلات في قوانينها وإعادة تأهيل المعلمين وإقالة الفاشلين منهم وتدعيمها بمدرسين جدد ومدربين جيدا، على مهنة التعليم، حيث تبدوا الأوضاع التربوية وقد لبست حلة التجديد، والتطوير على كل الأصعدة، فضلا عن إمكانية تجهيز القطاع التربوي بالأدوات التعليمية وبالأجهزة الضرورية لحسن سير العمل"[11].

اذن فمفهوم الإصلاح مرادف لفعل التجديد RENOUVELER عندما ندخل على ما هو قائم أو ممارس ما يجدد شكله أو فعله سواء في تكنولوجيا التعليم أو في مناهج الدراسة وأساليب تعليمها وتقويمها أو في صيغ الإدارة المدرسية ونظم إعداد المعلمين.

وقد يرتقي هذا التجديد إلى مستوى الخلق والإبداع بمعنى ابتكار شيء جديد لم يكن له مثال معروف، كما يتضمن التطوير: أي التحول في نقلة أو نقلات نوعية بما يتماشى مع لغة و متطلبات التحديث.

وفي كل إصلاح يحدث تغيير بدرجة أو بأخرى بما يحقق الأهداف المشروعة للإصلاح، لكن الإزالة أو المحو الكلي تحقيقا لمصالح شخصية لا يكون مرادفا للإصلاح لأن المعنى العام للإصلاح هو الوصول إلى الأفضل والأحسن والوجه الأكمل.

إن لغة الإصلاح تختلف باختلاف المنظرين والمربين والممارسين، فالإصلاح عند السياسي ليس هو الإصلاح عند المربي، لأن لغة المربى لغة علمية منهجية بعيدة عن الحسابات والمصالح الضيقة، لهذا فالإصلاح لا يحدث بطريقة عشوائية أو ارتجالية بل هو مشروع تبرره الدراسة المنهجية، وتدفع إليه الحاجة إلى التطوير.

إذن فالإصلاح التربوي عملية منهجية متكاملة، شاملة لعناصر العملية التربوية تهدف لإحداث التغير الأحسن والبناء الكامل للأداء التربوي، وفقا لفلسفة محددة واضحة المعالم، تهدف إلى تحسين المردود التربوي .

ولا يحدث الإصلاح من عدم أو عشوائية بل هو نتيجة دوافع، فيحدث تحت ضغط ظروف إجتماعية معينة أو نتيجة لحاجة ما ،فهو إما سد لثغرات أو مواكبة للعصر، وتحقيق للتنمية فالمتغيرات السياسية والثقافية والإقتصادية كلها تمثل دافعا للإصلاح التربوي.

والتغير الثقافي كذلك سبب للإصلاح التربوي، فظهور المفاهيم الجديدة كفكرة العدالة والحريات وحقوق الإنسان، تؤدي إلى تغيرات على النظم التعليمية وبنيتها، وبالتالي ظهور الأدوار الجديدة للمدرسة كتحقيق التماسك الإجتماعي والقضاء على الفوارق الطبيعية.

ويحدث الإصلاح لمواجهة التحديات والمستجدات الداخلية والخارجية، ومواكبة العصر، خاصة في ظل الإنتقادات المتزايدة للنظم داخليا وخارجيا.

فالإصلاح التربوي يمثل في مطلع هذا القرن هاجسا للمجتمعات البشرية في محاولة لخلق عالم العدل والمساواة والقيم الإنسانية والتربية المتجددة التي تنطلق من الإنسان لتعود إليه. لذلك فالإصلاح التربوي نتيجة حتمية لمعطيات جديدة، كالتحولات العالمية في

المجالات المعرفية والعلمية والتحولات العميقة التي عرفها المجتمع الجزائري والمشاكل المتراكمة على المنظومة التربوية منذ الإستقلال.

ويعد الإصلاح التربوي إستراتيجية للتغيير والتجديد تستثمر في العنصر البشري، باعتباره أداة التنمية خاصة إذا استطعنا بناء المواطن الذي يتقن الجمع بين التراث والتفنن في مواكبه روح العصر، أي احداث تغير إيجابي وتحقيق التطور في الأداء المدرسي وتحقيق الجودة " ويتحقق ذلك حين يصبح المردود متكافئا مع الجهود وتصبح الجهود في مستوى الأهداف ويرتفع الوعى بأهمية العلم وتقل مظاهر الإخفاق"(12).

ومن ثمة يهدف الإصلاح التربوي إلى أهداف منها:

- تعزيز العمل التربوي من خلال تثمين وظيفة المعلم "وإعادة الاعتبار لمهنة التعليم وجعلها في طليعة المهن بإحاطتها بالرعاية الكاملة المادية والمعنوية والبيداغوجية "(13) لأن التعليم أرقى المهن وأقدسها ولا خير في أمة لا تبجل معلميها.

- ويشمل الإصلاح التربوي المحتوى التعليمي ومناهج التدريس "وإعادة بناء هذه المحتويات وفق تدرج منهجي يراعى فيه قدرات المتعلمين وحاجاتهم "(14) لأن التربية لم تعد تلقينا، ولم يبقى التعليم حشوا وكما من المعارف، بل هو يرمي إلى كيفية توظيف المعرفة واستثمارها عمليا لمواجهة المشكلات.

- وهناك الأهداف التربوية التي ينبغي صياغتها وتحديدها، وفق متطلبات المجتمع وقدرات المتعلم وإمكانيات الدولة ثم تحسين الأداء التربوي بتحسين هياكله القاعدية وعصرنتها لتتماشى ومتطلبات الحراك الحضاري.

ثانيا: التربية والثقافة:

إن الفرد كائن اجتماعي يتطور ويتغير بتبدل الإرث الإجتماعي والتراث الثقافي، ولما كانت التربية أحد الأنظمة الإجتماعية فإنها تمثل عاملا مهما في اكتساب الأفراد للثقافة الاجتماعية والثقافات العالمية فالتربية تثقيف للأجيال المختلفة وتبدأ مع ولادة الفرد وتستمر هذه الثقافة وتدوم معه حتى يموت.

والثقافة مفهوم واسع تشير إلى دلالات مختلفة وترتبط ارتباطا وثيقا بمصطلحات أخرى كالمدنية والحضارة فهي:" تدل على التهذيب والصقل، فالرمح المثقف هو الرمح المقوم المصقول"(15).

وعرفها تايلور:" الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفنون والقيم والقانون والعادات التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع"(16).

إن الثقافة تمثل طريقة الحياة وهي تتنوع بتنوع المجتمعات الإنسانية، فلكل مجتمع ثقافته الخاصة، وهي تمثل عناصر عامة يشترك فيها جميع الأفراد كاللغة والعقيدة وغيرهما، وهي رابطة تجمع الأفراد وتقوى فيهم الشعور بالانتماء والاعتزاز، والتربية حينها تساعد على تقمص واكتساب هذه العناصر.

كما أن للثقافة خصوصيات تتعلق بطبقات المجتمع و ألوانه وفئاته، فللجامعة خصوصياتها الثقافية وللمدرسة خصوصياتها وهكذا، وهذه الخصوصية تمثل مصدر إبداع وتجدد للفرد والمجتمع، وهي ضرورية وحيوية لأنها تشجع على المبادرة والتطلع لما هو جديد.

وإذا كانت الثقافة ظاهرة اجتماعية، فإن ديناميكية المجتمع وتفاعله الحضاري يصاحبه تغيرات خاصة الثقافية منها، فتهب على المجتمع ثقافات جديدة تعرف أنها متغيرات ثقافية "قد تكون ناجمة عن اتصال أو تفاعل ثقافة المجتمع بثقافة مجتمع آخر وهذا يتوقف على درجة انفتاح ثقافة المجتمع على الثقافات الأخرى"(17) وهي تمثل طاقة جديدة للمجتمع وإن كان هناك اختلاف حول تأثيرها وانعكاسها على الثقافة الوطنية، لذلك فأثرها واضح جلي على البنية الاجتماعية والقيم السائدة، وهنا يظهر التأثير القوى للتربية، لذلك نجد أن النظام التربوي يرتبط بثقافة المجتمع لأجل المحافظة على الخصوصية الثقافية وتطويرها لمواكبة التجدد الحضاري.

وإستقراء التاريخ الثقافي للإنسان يكتشف أن ما وصل إليه القدماء من حلول لمشاكلهم المختلفة الطبيعة والإجتماعية هي أساس تكون الثقافة، ثم أقرها المجتمع بعد ذلك عندما أدرك قدرتها وفاعليتها في مواجهة مشكلات الحياة، ثم إن هذه الثقافة يكرسها المجتمع

ويتوارثها عبر أجياله عن طريقة التربية، لذلك فإن" التربية كأداة إيجابية من أدوات التنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية تستمد فلسفتها وأهدافها وخططها ومناهجها من ثقافة المجتمع"[(18)]، فالثقافة يتعلمها الفرد ويكسبها عن طريق التفاعل الاجتماعي فتتكون لديه مهارة التفكير والتصرف والشعور والتعامل حسب طبيعة الثقافة وتطورها.

ثالثا: علاقة التربية بالتغير الثقافي:

تقوم المؤسسات التربوية بأشكالها المختلفة بتطوير الثقافة وتغيير عناصرها، كما أنها تقوم بتثقيف الأجيال، فإذا كانت التربية تساعد على تغيير المجتمع، فإن أمر التغير الثقافي أوسع بكثير من التغير الاجتماعي، فالثقافة إرث اجتماعي وهي نتيجة تراكمات واسعة شملت جميع جوانب الحياة الإنسانية، " فالثقافة من صنع الإنسان ولهذا كان التغيير الثقافي عبارة عن عملية تفاعل إنساني ينميها، الفكر الخلاق والاختراع"[(19)]، فإذا تغيرت الثقافة تغير المجتمع، ولهذا كانت التربية محركا لنهضة المجتمع وتقدمه لأنها هي من يحفظ ويطور الثقافة ويغيرها.

كما أن التربية بكل ما تتضمنه من مناهج هي الأصل الذي تبنى عليه الحضارات، ولكن شرط أن تكون العملية التربوية عمليه متكاملة وواضحة وهادفة، وإذا كانت الثقافة تشمل الزمن الإنساني بأبعاده الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل، فإنها أداة تكيف للإنسان مع بيئته، ما يساعده على التعلم لهذا كانت الثقافة تعبير عن قدرة الإنسان على التعلم، فقدراته واستعداداته النظرية ضف إليها ابداعه لأدوات التواصل كاللغة، مكنته من السمو في سلم الكائنات حتى أصبح سيدا على الطبيعة، وسيادته لم تكن من عدم بل بنيت على أساس ما أنتجه من ثقافة.

كما أن التغير الثقافي وظهور أنماط جديدة يعود بالدرجة الأولى إلى دور التربية وتفاعلها المستمر مع التغيرات الاجتماعية، لذلك فلا يمكن الفصل بحال من الأحوال بين التربية والثقافة والمجتمع.

فالمجتمع يتظمن ثقافات متباينة، ما ينتج عنه صداما ثقافيا وإجتماعيا يؤدي إلى تغير وتطور الثقافة الإجتماعية ومختلف النظم ، لذلك فالثقافة هي حركة مستمرة بسبب حركية وحيوية القوى الإجتماعية لذلك كان "لابد أن تتأثر التربية بهذا التناقض وهذه الحركة داخل الثقافة حيث أنها السبيل إلى تمكين الأفراد من المفاهيم والأفكار والوسائل الكفيلة بتغيير ثقافتهم و تطورها"[20] مما يحقق للمتربي الشعور بالإنتماء للجماعة.

إن الثقافة خاصية إنسانية كما التربية، و مرونتهما تحقق للفرد التكيف الأمثل مع البيئة، فالثقافة تشعر الفرد بالاندماج الاجتماعي والتوافق مع المعايير والقيم والسلوكات، مما يعزز روح المواطنة والإنتماء، والثقة بالمعايير الإجتماعية السائدة، وهذا ما يسهل عملية التواصل الإجتماعي لهذا تمارس الثقافة الإلزام على الأفراد للقيام بالواجب الإجتماعي، مما يجعلهم "خاضعين لثقافة مجتمعهم من أفكار ومعايير سلوكية وقيم، ولا يستطيعون أن يشذو عنها وإلا نبذهم المجتمع"[21].

وتتنوع وظائف الثقافة حسب طبيعة المجتمع والأفراد، ومدى تطور الثقافة نفسها أو تخلفها، فإذا كانت الثقافة متنوعة إما مادية كالبناء، والأثاث والطعام وغيرها، ومعنوية كالزواج، العلاقات الأسرية، فإن وظائفها كذلك لا تعدو أن تكون مادية وروحية:

فالثقافة أولا تحدد طريقة بناء الأجيال وتعرف بأصول تكوينهم وتربيتهم، والطرق التي تمكن الإنسان من إشباع حاجاته، فالبقاء لا يعني الصراع ومحاربة الطبيعة كما لا يعني تغييب العقل والاكتفاء بالجهد العضلي فقط، لأن التاريخ يكشف أن الإنسان البدائي العبد للطبيعة كان بسبب بدائية وسائله، ومحدودية تفكيره، وانعدام أدواته، ثم تطور تدريجيا في سلم الكائنات إلى أن تحققت له السيادة، فما مر به من ظروف وأحوال شكلت خبرات وتراكمات معرفية هي ما يعرف بالثقافة.

كما تحدد الثقافة طريقة تربية الأبناء وتعليمهم، ويظهر ذلك من خلال حرص المجتمعات على نقل التراث –الثقافة– إلى ألاجيال ومحاولة غرس المفاهيم من عقائد وآداب وقوانين وضعتها الجماعة لتحقيق التواصل بين الأجيال وتحقيق التوافق بين الفرد والجماعة لهذا

"تسعى التربية إلى تنشئة الفرد تنشئة إجتماعية من خلال مساعدته على إكتساب ثقافة مجتمعة"[22] لأن الشخصية الفردية لا تتكون من فراغ بل في بيئة طبيعية اجتماعية وثقافية محددة.

والثقافة عامل مهم في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والمجتمعات، وتحدد معايير السلوك وما يجب أن يكون، ولهذا فالوظيفة التاريخية للثقافة المتمثلة في تحقيق الأصالة، وربط الأفراد بتراثهم و ماضيهم، لا يعني تقوقعها على ذاتها، فهي محكوم عليها بالتطور والعصرنة، لهذا فالثقافة تقوم على" إعادة ترتيب العلاقات مع الماضي فى الوقت نفسه الذي تعمل فيه على بناء العلاقة مع المستقبل"[23] فالماضي ليس الحاضر لأن حدة الصراع و النزاع زادت العلاقات الاجتماعية الإنسانية العالمية تأزما، فنجد داخل المجتمع صراع نخب ثقافية فهذا علماني وآخر إسلامي وهكذا وبين الشعوب نجد أمة متحضرة وأخرى متخلفة وهكذا، لهذا فالثقافة أسلوب حوار وتفكير ونمط حياة تغرس في نفوس الأفراد وتعزز اجتماعيا بالمحافظة عليها، كما ينبغي أن تحترم عالميا لأن التفتح الحضاري لا يعني الذوبان والإنسلاخ والأصل لا يعني التقوقع والجمود، لهذا فالثقافة عامل توفيق وتلاحم بين التراث والحديث.

إن الثقافة قوة تدفع إلى الحياة والإستمرارية والتنمية وبدونها تفقد الإنسانية إنسانيتها لتنزل إلى الحيوانية، فالثقافة هي الحرية، والبناء والديمقراطية والوحدة، والتكامل "ولإنجاز هذا العمل الحضاري لابد من إقامة كتلة تاريخية تنطلق من قاعدة الإهتمام بأولوية المسألة الثقافية، وذلك لخلق إجماع فكري"[24] فالثقافة حياة لأنها تجديد وإبداع فهي أساس كل تخطيط وأصل كل نجاح.

اختلف المفكرون في تحديد علاقة التربية بالمجتمع، فمثلا عند أفلاطون التربية وسيلة لإصلاح المجتمع وتحسينه وتطوره، أما أرسطو فيعتبر التربية ضرورية لاستقرار المجتمع بأوضاعه وقيمه، غير أن المتفق عليه هو أن للتربية وظيفة اجتماعية، فهي "ضرورة إجتماعية هدفها إعداد الفرد ليصبح عضوا في مجتمعه وبالتالي يجب أن تتكيف لتخدم

النظام الإجتماعي"[25]، فالمؤسسات التربوية كالمدرسة مثلا: لم تنشأ في فراغ وبرنامجها التربوي ليس عشوائيا بل هي ثمرة تطور النظام الإجتماعي، وإذا كانت التربية عملية تتم في المجتمع، فإن النظام التربوي يرتبط ارتباطا أساسيا بالنظام الاجتماعي السائد، وهذا الارتباط قديم قدم الإنسانية، فالتغيرات ومتطلبات العمل وسرعة الحياة تفرض على المؤسسات التربوية والاجتماعية ضرورة المسايرة لهذا الواقع.

رابعا: التربية والمجتمع:

المجتمع عبارة عن مجموعة من الأفراد يعيشون فوق بقعة جغرافية معينة، فى علاقات تبادلية وتعاون، يربط بينهم تراث ثقافي معين، وثقافة مشتركة ولديهم وحدة الشعور بالانتماء لمجتمعهم، وتستمد التربية من المجتمع" مختلف الأسس والمناهج التي لأن عمليات التنشئة الاجتماعية التي تتولاها التربية تسعى لتحقيق عضوية الجيل الجديد في المجتمع عن طريق تعلمه لغة الجماعة وفكرها وتقاليدها، وقيمها"[26] فهي قوى مؤثرة في وضع المنهج وتنفيذه، وهي ترتكز أساسا إلى المبادئ السائدة في المجتمع، ومختلف المشكلات والحاجات التي يطرحها بهدف حلها وتحقيقها، فالأهداف الاجتماعية تحددها فلسفة التربية من خلال تحديد محتوى المنهج ووسائل التدريس وإستراتيجياته.

فالإنسان ينمو ويتطور ضمن جماعة، فالبيت والمدرسة ومكان العمل يمثل بيئة اجتماعية يتفاعل في الأفراد، "والمجتمع هو الذي أنشأ المؤسسات المتعددة التي تقوم بالعمل التربوي لتنشئة الأفراد"[27] لأجل استمراره وإعداد الأفراد للقيام بمسؤولياتهم، ولذلك فالمجتمع يتأثر بمختلف الظروف المحيطة به وعليه تختلف المناهج التربوية بتغير الأزمنة والأمكنة، والسياق الاجتماعي ينعكس على التربية بشكل واسع فالمجتمع هو من يرسم النشاط التربوي و يدعو إلى تنميته.

إن التربية عملية اجتماعية، والمجتمع بمثابة الإطار العام الذي تتم فيه، فلو تأملنا تاريخ الحضارات لوجدنا أن التربية هي محرك المجتمع، فالأثينيون اهتموا بخلق الإنسان المتكامل

الصالح فصنعوا لنا جهابذة الفكر الفلسفي كسقراط، أفلاطون وغيرهما، أما الاسبرطيون فاعتنوا بالتربية الصارمة فكونوا المجتمع العسكري القوي الذي يواجه أقسى الظروف.
أما روما فصنعت الأجيال القادرة على الحروب والقتال وإعداد الجيوش والعساكر، أما في الحضارة الإسلامية فكان الأمر مغايرا تماما فالمجتمع الإسلامي أقام تربية دينية أساسها العقيدة والتوحيد وهدفها السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، فالمسلم يبني ويعمر خدمة لنفسه ومجتمعه لينال رضا ربه.
أما المجتمعات الحديثة والمعاصرة فكلها تعتمد التربية لإنشاء دول معاصرة ومتحضرة وفاعلة تستطيع البقاء والمواجهة وتحدث التنمية الشاملة المبنية على المعرفة.
إذن فالاختلاف بين الحضارات في العملية التربوية لا ينفي وجود بعد اجتماعي مشترك بينها هو:" خلق كائن جديد في الإنسان و هذا الكائن هو الكائن الاجتماعي"(28) فتعرف الفرد على ذاته لا يتم إلا في نطاق الجماعة ومعرفة المجتمع واتجاهاته وأساليب العيش فيه فالتربية واسطة نقل ثقافة المجتمع ومعاييره وأنماط سلوكه وعاداته وتقاليده إلى الأفراد بالتنشئة الاجتماعية، التي هي "هي عملية إدماج الفرد في المجتمع في مختلف أنماط الجماعات الإجتماعية، وإشتراكه في مختلف فعاليات المجتمع وذلك عن طريق إستيعابه لعناصر الثقافة والمعايير والقيم الإجتماعية التي تتكون على أساسها سمات الفرد ذات الأهمية الاجتماعية"(29)، فالصفات الفردية البيولوجية تتكون وتتفتح في المجتمع، لأن المجتمع يفرض مطالبه على الفرد فتتكون الشخصية الإنسانية السيكولوجية والاجتماعية إضافة إلى البيولوجية، فما هو وراثي يتفاعل مع ما هو مكتسب، فالمجتمع يطبع الأفراد بطابعه الخاص وكما قيل:" المجتمع كالهواء الذي نتنفسه ولا نشعر به"، فهي عملية تعلم وتعليم وتربية، تقوم على التفاعل الإجتماعي وتهدف إلى إكتساب الفرد طفلا فمراهقا فراشدا، فشيخا، سلوكا ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة تمكنه من مسايرة مجتمعه والتوافق الاجتماعي معه وتكسبه الطابع الاجتماعي وتيسر له الإندماج في الحياة الاجتماعية"(30) فالفرد في علاقة دائمة ومستمرة مع

المجتمع وهي علاقة تفاعلية، فالفرد يتعرف على سلوكه وسلوك غيره، عن طريق الوعي فيحصل ترابط وتعاون بين الأفراد في المجتمع الواحد، وهذا الترابط الإيجابي يعكس حرص الفرد على المساهمة في تنمية المجتمع وانخراطه السلس في مختلف تظاهراته الثقافية.

إن التنشئة الإجتماعية عملية معقدة يتداخل فيها ما هو فردي مع ما هو إجتماعي وماهو مادي مع ما هو روحي، فهي ديمومة تبدأ من الولادة وتنتهي بموت الإنسان وهي تتجه مباشرة إلى الذات لأنسنتها، وتحترم خصائصها ومراحل نموها، لذلك كانت عملية حيوية وديناميكية تقوم على التفاعل بين الذات والآخر، وبالتالي دور من أدوار التربية في تثبت القيم والعادات الاجتماعية والتقاليد فلكل مجتمع قيمه ويكفينا المقارنة بين المجتمع الغربي والعربي لندرك التمايز القيمي، فما يراه العربي أصالة يراه الغربي تخلفا وجمودا، وينطبق هذا الأمر على تقاليد المجتمع وعاداته. والمقصود بالتقاليد الاجتماعية هي " قواعد السلوك الخاصة بجماعة أو طائفة معينة والتي تنتقل من جيل إلى آخر، متميزة من العادات يكون الناس يشعرون بقدر من التقديس تجاه التقاليد "[31] فهي تمثل كل ما تعارف عليه الناس وشاع بينهم، فهي ظاهرة اجتماعية مكتسبة تتوارثها الأجيال، فيشعرون بقداستها ويزدادون تمسكا بها، حتى أنها تترك أثرا على أفرادها فيشعرون بالثقة والطمأنينة لأنها متقبلة عند الآخرين وتوارثها بين الأجيال يجعلها راسخة صعبة الزوال .

كما تتجه التنشئة لإكساب الفرد عادات مجتمعة، والعادات الاجتماعية هي "الممارسات التي تستلزمها الحياة الاجتماعية في مجتمع من المجتمعات وتتصل بالأعمال والأفعال الضرورية التي ترتبط بالمعاملات بين الناس"[32]، فهي متنوعة تتعلق بمختلف ظروف الحياة لذلك فهي عامل استقرار وتماسك للمجتمع وضبط العلاقات، وتنظيم المجتمع. فهي تمثل سلطة لا يجوز الخروج عنها لأنها تمثل الضمير الجمعي.

وتقوم بدور التنشئة الاجتماعية الأسرة لأنها اللبنة الأساسية لبناء المجتمع، والأصدقاء أو الرفقة لأنها عناصر مشتركة بين المدرسة والبيت، ضف إلى ذلك الدور المهم للمدرسة

فهي عالم جديد يمثل النظام والتوجيه وهناك وسائط أخرى كالمسجد مثلا فهو يمارس دورا في عملية التنشئة وتعمل هذه المؤسسات بشكل تام في بلورة الشخصية وتكاملها.

خامسا: الوظائف الإجتماعية والثقافية للتربية:

لما كانت التربية عملية اجتماعية فهي النظام الرئيسي للمجتمع وعموده الذي يستند إليه فهي ضرورة ملحة لما لها من وظائف نذكر بعضها :

– التغيير الاجتماعي سواء كان ماديا أو معنويا، وهو يختلف من حيث الدرجة والسرعة والنوعية كما يخضع لعوامل كالتجدد المعرفي والتطور العلمي والتقني، وظهور المشكلات والحاجيات الاجتماعية الجديدة، هذا ما "يحتم على التربية أن تتحمل مسؤولياتها إزاءها لأن التغير الاجتماعي لا يعني دائما التقدم الاجتماعي"[(33)] وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن دور التربية في الضبط الاجتماعي.

– فالتغير قد يحدث صدمة اجتماعية أو نتائج عكسية سلبية سواء للفرد أو الجماعة، ولذلك يبرر بغياب الرؤية، وغياب النموذج المنشود أو سوء التخطيط، لهذا" فالتخطيط يفقد قيمته إذا لم يحقق الخطط والمشروعات التي تواجه بها الجماعة التغير من أجل إحداث المزيد من التقدم في حياتها"[(34)] لذلك فالتربية قوام الضبط والتخطيط فهي بناء منهجي يحدد ألأساليب والغايات والوسائل لخلق المواطنين الصالحين في المجتمع.

كما تضطلع التربية بوظيفة اجتماعية أخرى غاية في الأهمية وهي نقل التراث الثقافي، فهي من تهذب الطبيعة البشرية الغريزية وتؤنسنها، فهي تحفظ خبرات المجتمع، وتوفر البنية الاجتماعية الملائمة لتنشئة الأفراد، وتبسط التراث وتحفظه من الاندثار، وتزيل عنه كل ما يتعارض مع القيم العليا للمجتمع.

والتربية تجدد التراث الثقافي وتضيف إليه، فهي تربط الفرد بماضيه وتفتح له أبواب المستقبل فإذا كان ما يعاب على التربيات القديمة أنها بالية بسبب دعوتها إلى التقوقع على الذات

والاكتفاء بتعاليم القدماء وأفكارهم، فان التربية الحديثة تجربة تجسد التفاعل الحسن بين القيم والأصالة ومواكبة روح العصر.
إذن فالتربية هي ما يحدد مركز الفرد الاجتماعي و الوظيفة التي يقوم بها، من خلال تكوين القيم الوجدانية والخلقية في نفوس الأفراد في مجال ما يحدده المجتمع من ضوابط ومعايير تتفق و ثقافته، من خلال مؤسساتها النظامية وغير النظامية، فتنشر الوعي الاجتماعي بتطوير البحث العلمي و تشجيع المؤسسات العلمية ، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم، ومنح المرأة حقها في التعليم، وتزويد المجتمع بمختلف الطاقات والمهارات اللازمة لبنائه وتطويره.

خاتمة:

إن أهمية التربية تتمثل بكل اختصار في كونها تمثل الحياة، فهي أداة تشكيل شخصية الفرد ضمن الجماعة التي ينتمي إليها، فيشعر بذاته ضمن ما يحتويه الأخر من ثقافة، وهي بذلك الوحيدة دون سواها التي تعمل على تزويد المجتمع بالموارد والكفاءات البشرية التي تحافظ على مكانته الحضارية، فهي تخرجها بحيث تكون متشبثة بتاريخها وهويتها، معتزة بانتمائها ومتشبعة بنور العلم والمعرفة والخبرة لتصنع أمجاد أمتها دون ذوبان أو انغلاق. وهكذا نجد الإصلاح التربوي أداة مواجهة التحديات على كافة المستويات، ووسيلة تحقيق الأهداف في كل الميادين، لهذا نال الأهمية القصوى والصرامة الكبرى في التخطيط لأي مشروع نهضوي. هذا ما يجعل التربية والتعليم أكثر من ضرورة فهي فعالة في حل مشكلات المجتمع وتلبية احتياجاته وتطوير ثقافته، والإسهام في تنميته.

إن التربية – باعتبارها أكبر وأخطر مشروع اجتماعي في كل العصور – تمتّد أهميتها ومسؤولياتها إلى ما لانهاية دون حدود زمنية، وأن المعرفة الإنسانية التي تشكّل أساس التربية تتجاوز أهميتها مجرد حدوث المعرفة إلى القدرة على استخدامها والإفادة

منها، وتستند إلى قاعدة من القيم والاتجاهات الأخلاقية النبيلة التي يتوقف عليها مستقبل الحضارة الإنسانية، وإن صورة التربية في المستقبل القريب - وربما في الوقت الحاضر كذلك - سوف تؤثر إلى حد كبير في اتجاهات الحضارة ومضامينها في كافة المجتمعات البشرية.

الهوامش:

(1)- محمد احمد كريم قراءات فى فلسفة التربية، محمد أحمد كريم، قراءات في فلسفة التربية. شركة الجمهورية الحديثة لتحويل وطباعة الورق، دون طبعة، 2002. ص 39

(2)- على حسين الدورى، اصول التربية فى مفهومها الحديث. الأردن، ط 1، 2009ص17

(3)- سعيد جاسم الأسدى، مروان عبد المجيد ابراهيم. الارشاد التربوى مفهومه ، خصائصه ، ماهيته. الدار العلمية للنشر و التوزيع، عمان، الأردن،ط1، 2003.ص105

(4)-الاء جاسم كاطع ،مفهوم التربية من وجهة نظر الفلاسفة، مفهوم التربية من وجهة نظر الفلاسفة، مجلة كلية التربية، المجلد2، العدد1 ، 2012.ص60

(5)- الاء جاسم كاطع، مجلة كلية ،التربية نفس المرجع ، ص61.

(6)- محمد منير مرسى، اصول التربية. عالم الكتب، القاهرة، مصر،دون طبعة، 2001ص17-6)

(7)- محمد منير موسى، الاصلاح والتجديد التربوي في العصر الحديث، عالم الكتب، القاهرة 1966، ص07.

(8)- حسن حسين البيلاوي، الاصلاح التربوي في العالم الثالث، عالم الكتب، القاهرة، 1998ص 32

(9)- عبد القادر فضيل، المدرسة في الجزائر — حقائق وإشكالات -. جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013 ص63

(10)- أحمد الخشاب، الإصلاح التربوي و الإرشاد الاجتماعي، مصر، مكتبة القاهرة، سنة 1971، ص 13.

(11)- جرجس ميشال جرجس، معجم مصطلحات التربية و التعليم، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2005، ص 79

(12)- عبد القادر فضيل، المدرسة في الجزائر - حقائق و إشكالات -. جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013. ص68

(13)- عبد القادر فضيل ،المدرسة فى الجزائر —حقائق واشكالات،نفس المرجع ، ص 68

(14)- عبد القادر فضيل ،المدرسة فى الجزائر —حقائق واشكالات، نفس المرجع، ص 68

(15)- شبل بدران، فاروق محفوظ. أسس التربية. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية ، ط1 ، 1993،ص93

(16)- محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية - الأصول الثقافية للتربية-، مكتبة الأنجلو مصرية، بدون طبعة أو سنة، ص 133

(17)-عزت جرادات ،عبيدات ذوقات، ابو غزالة هيفاء ، خيري عبد اللطيف، أسس التربية. دار صفاء للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2008.، ص 56.

(18)- سعيد إسماعيل علي، ، أصول التربية العامة، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2007. ص 98.

(19)-شبل بدران، فاروق محفوظ أسس التربية، دار المعرفة الجامعية،مرجع سابق، ص107

(20)- محمد الهادي عفيفي في أصول التربية - الأصول الثقافية للتربية-، مكتبة الأنجلو مصرية، بدون طبعة أو سنة، ص 153.

(21)- سعيد إسماعيل علي أصول التربية العامة، مرجع سابق، ص 99.

(22)- عزت و آخرون، أسس التربية ،مرجع سابق ص 54.

[23]- عبد الكريم غريب، فلسفة التربية. منشورات علم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الجزائر، ط1، 2013 ص183.

[24]- عبد الكريم غريب، فلسفة التربية. منشورات علم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الجزائر، ط1، 2013، ص186.

[25]-سعيد التل و آخرون، المرجع في مبادئ التربية، دار الشرق للنشر والتوزيع،ط1 ، بيروت،1993،ص 133، 134

[26]- عبد القادرلورسى،. المرجع في علوم التربية. جسور للنشر و التوزيع ، الجزائر، ط1، 2013.ص 126.

[27]- سعيد إسماعيل علي، أصول التربية العامة، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2007، ص 71.

[28]- عبد القادر لورسى،. المرجع في علوم التربية ،مرجع سابق ص 128.

[29]- شبل بدران ،فاروق محفوظ،. أسس التربية،مرجع سابق ص 55.

[30]-صلاح الدين شروخ علم الإجتماع التربوي. دار العلوم للنشر و التوزيع، عنابة، الجزائر، بدون طبعة، 2004،ص 57

[31]- صلاح الدين شروح، علم الاجتماع التربوي، نفس المرجع ص 37.

[32]- صلاح الدين شروح، علم الاجتماع التربوي نفس المرجع، ص 33.

[33]- عزت جرادات و آخرون، أسس التربية،مرجع سابق ص54

[34]- سعيد اسماعيل علي، اصول التربية العامة،مرجع سابق ص 74